

مسلك الدراسات الإسلامية

الفصل الرابع - الموسم الجامعي: 2021/2020

وحدة الأدب الإسلامي

إعداد: ذ. ادريس أبوزيد

المحاضرة الأولى:

مفهوم الأدب الإسلامي

تعريف الأدب: ما معنى كلمة (أدب)؟ وما أصلها اللغوي؟

كلمة (أدب) من الكلمات التي تطوّرت دلالتها مع الزمن، وتردد استعمالها بين الأصل اللغوي المعروف عند العرب في الجاهلية، وبين الاستعمال الشرعي المجازي الذي أنشأه الإسلام واستعمله، حتى استقر معناها في عصرنا الحالي على صنف من الكلام الإنشائي، يراد به التأثير في وجدان وعواطف القراء والسامعين، وهذا الكلام الإنشائي يكون إما نثراً أو شعراً؛ فالأدب نوع من أنواع التعبير النابع عن المشاعر الإنسانية الفياضة والجياشة، التي تجول بخاطر الكاتب أو الشاعر، ويعبر عنها من خلال الكتابة بعدة أشكال، سواء أكانت هذه الكتابة نثرية أم شعرية، أو أي شكل من أشكال التعبير الأدبي؛ والغرض من هذا التعبير الرقيق والحساس هو نقل الأفكار والقناعات والمحصلات الأدبية والحضارية للغير بطريقة فنية أدبية.

والأدب في محصلته ما هو إلا نتاج فكريّ يشكّل في مجموعته الحضارة الفكرية واللغوية لأمة من الأمم وهو انعكاس لثقافتها ومجتمعها.

الأصل اللغوي لكلمة: (أدب)

*في العصر الجاهلي:

من خلال البحث في المعاجم اللغوية، نجد أن الاستعمال الأصلي لكلمة: (أدب) عند العرب في الجاهلية، هو دعوة الناس للطعام، ومنه اشتقت: (المأدبة)، قال ابن فارس:

(أَدَب): الهمزة والدال والباء أصل واحد تتفرع مسائله وترجع إليه: فالأدب أن تجمع الناس إلى طعامك. وهي المأدبة والمأدبة. والأدب الداعي. قال طرفة:

نحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى *** لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ. ¹

*في العصر النبوي:

بعد مجيء الإسلام اشتق من هذا المعنى المادي والحسي لكلمة أدب معنى آخر مجازي، وهو دعوة الناس إلى مائدة مكارم الأخلاق، قال الزبيدي:

" المأدبة، كما قالوا: المدعاة، - أي الدعوة - وقيل: المأدبة من الأدب، وفي الحديث عن ابن مسعود «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدَبَةٌ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدَبَتِهِ» ² يعني مدعاته، قال أبو عبيد، يُقَالُ: مَأْدَبَةٌ وَمَأْدَبَةٌ، فَمَنْ قَالَ مَأْدَبَةٌ أَرَادَ بِهِ الصَّنِيعَ يَصْنَعُهُ الرَّجُلُ فَيَدْعُو إِلَيْهِ النَّاسَ، شَبَّهَ الْقُرْآنَ بِصَنِيعٍ صَنَعَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ، لَهُمْ فِيهِ خَيْرٌ وَمَنَافِعٌ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَيْهِ. وَمَنْ قَالَ مَأْدَبَةٌ جَعَلَهُ مَفْعَلَةً مِنَ الْآدِبِ" ³ ويدل على هذا المعنى أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أدبني ربي فأحسن

1. المشتاة: زمن الشتاء. والجفلى: الدعوة العامة؛ أي ندعو الناس عامة لطعامنا ولا نتنقر؛ أي لا نخص بعض الناس بدعوتنا دون البعض الآخر.

2. رواه الحاكم في المستدرک 1 / 555. والبيهقي في "شعب الإيمان رقم: (1933).

3. تاج العروس، فصل الهمزة مع الباء، (أدب)، ج 2، ص: 13

تأديبي))⁴ ، ولا يخفى أن المراد بالأدب في هذه الأحاديث وغيرها هو تهذيب النفس بحسن الخلق.

* في عصر الخلفاء الراشدين:

في عصر الخلفاء الراشدين، تؤكد هذا المعنى الأخلاقي التربوي لكلمة (الأدب) ، وأضيف إليه معنى آخر تعليمي، يهدف إلى تلقين صبيان المسلمين وولدانهم أصولاً من الشعر وشيئاً من أنساب العرب وأيامهم، حيث نجد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رض الله عنه يكتب رسالة إلى أبي موسى الأشعري يقول فيها: " **مُرْ مِنْ قِبَلِكَ بِتَعَلُّمِ الشَّعْرِ؛ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَصَوَابِ الرَّأْيِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ.**"⁵ ، كما كتب أيضاً إلى ساكني الأمصار، يقول: " **أما بعد، فعلموا أولادكم العلوم والفروسية، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر**"⁶

* في العصر الأموي :

ظهرت في هذه الفترة، فئة من المعلمين تسمى: (**المؤدبون**)، تعنى بتلقين أبناء الأمراء مبادئ الشعر والخطابة حتى ينشؤوا على الفصاحة.

يقول الدكتور شوقي ضيف: "ولا نمضي في عصر بني أمية حتى نجد الكلمة تدور في المعنى الخلقى التهذيبي، وتضيف إليه معنى ثانياً جديداً، وهو معنى تعليمي؛ فقد وُجدت طائفة من المعلمين تُسمى بالمؤدبين، كانوا يُعلِّمون أبناء الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة

4 . أخرجه ابن السمعاني بسند منقطع عن ابن مسعود قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إن الله أدبني فأحسن تأديبي، ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: { **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ** } الآية...

5 . العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني: باب في الرد على من يكره الشعر. تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل: طبعة: 1981/5م، ج1، ص: 28

6 . ابن عبد البر: بهجة المجالس وأنس المجالس، باب الولد والوالد.

الثقافة العربية، فكانوا يُلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام. وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة (العلم) الذي كان يُطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم⁷.

*في العصر العباسي:

انتقل تلقين الآداب من مرحلة الشفاهية إلى مرحلة الكتابة والتدوين، وألفت فيه كتب ورسائل، تجمع في طياتها ألوانا من الشعر والخطابة والقصص والأنساب، يقول الدكتور شوقي ضيف:

" وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا المعنيين التهذيبي . أي الأخلاقي . والتعليمي يتقابلان في استخدام الكلمة، فقد سُمي (ابن المقفع ت142هـ)⁸ رسالتين له تتضمنان ضروبا من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم (الأدب الصغير) و(الأدب الكبير)، وبنفس هذا المعنى سُمي (أبو تمام) المتوفى سنة 232 هـ الباب الثالث من (ديوان الحماسة) الذي جمع فيه مختارات من طرائف الشعر، باسم "باب الأدب". وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذي عقده (البخاري) المتوفى سنة 256 هـ في مؤلفه المشهور في الحديث والمعروف باسم (الجامع الصحيح)، كما ينطبق على كتاب الأدب الذي صنّفه (ابن المعتز)⁹ المتوفى سنة 296 هـ.

وفي هذه الأزمنة أي في القرنين الثاني والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون، كانت كلمة الأدب تُطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سموها كتب أدب؛ مثل

7. تاريخ الأدب العربي، أحمد شوقي ضيف: دار المعارف، ص:8

8 - مفكر فارسي، وُلد مجوسياً؛ لكنه اعتنق الإسلام، وعاصر كُلاً من الخلافة الأموية والعباسية. درس الفارسية وتعلّم العربية في كتب الأدباء، نقل من البهلوية إلى العربية كليلة ودمنة .

9 . أحد خلفاء الدولة العباسية، وكنيته أبو العباس، ولد في بغداد، وكان أديبا وشاعرا ويسمى: خليفة يوم وليلة، حيث آلت الخلافة العباسية إليه، ولقب بالمرتضى بالله، ولم يلبث يوماً واحداً حتى هجم عليه غلمان المقتدر بالله وقتلوه في عام 296هـ، وأخذ الخلافة من بعده المقتدر بالله. ورثاه الكثير من شعراء العرب.

(البيان والتبيين)¹⁰ لـ(الجاحظ)¹¹ المتوفى سنة 255 هـ وهو يجمع ألواناً من الأخبار والأشعار والخطب وال نوادر، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة، ومثله كتاب (الكامل في اللغة والأدب) لـ(المبرد)¹² المتوفى سنة 285 هـ ، وقدّم فيه صوراً من الرسائل النثرية التي ارتقت صناعتها في تلك العصور [...] ومما أُلّف في الأدب بهذا المعنى كتاب (عيون الأخبار) لـ(ابن قتيبة) المتوفى سنة 276 هـ و(العقد الفريد)¹³ لـ(ابن عبد ربه) المتوفى سنة 328 هـ. " ¹⁴

* ما بعد العصر العباسي:

بعد منتصف القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الهجري، تطورت دلالة كلمة (الأدب) من مجرد المعرفة بالأشعار والخطب إلى نوع من تعلم فنون الذوق السليم، واللباقة، وحسن التصرف، الذي يجب التقيد والالتزام به لدى طبقة أو فئة من الناس. وممن أُلّف فيه، الإمام السيوطي، في كتابه:

10. الفرق بين البيان والتبيين، هو أن البيان يكون من الله ابتداءً، قال تعالى: (ثم إن علينا بيانه)، وأما التبيين فهو من الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو عكس الإخفاء، قال تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه).

11. إمام الأدباء في العصر العباسي الثاني، وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، وُلد في البصرة، وسُمّي بالجاحظ لجحوظ عينيه. ووضع طريقة بالإنشاء عُرفت باسمه، لذا اعتُبر قدوة المنشئين وإمامهم في ذلك العصر مثلما كان ابن المقفع إمامهم في العصر الأول. اعتبر الجاحظ من أغزر المؤلفين إنتاجاً، فكتب عن الأدب والشعر والديانات والعقائد، والإمامة والنبوة، والمذاهب الفلسفية، وبحث في السياسة والاقتصاد والأخلاق وطبائع الأشياء، وتكلم عن العصبية وتأثير البيئة، ونظر في العلوم التاريخية، والجغرافية والطبيعة، فكتب في المدن والأمصار والمعادن وجواهر الأرض، والكيمياء والنبات والحيوان، والطب والفلك، والموسيقى والغناء وكتب في الجواري والغلمان، والعشق والنساء، والنرد والشطرنج، وغير ذلك مما يتناول الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية في عصره وقبل عصره.

12. أحد العلماء الجهابذة في علوم البلاغة والنحو والنقد، عاش في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري

13. هو كتاب من تأليف ابن عبد ربه الأندلسي (ت. 328 هـ)، يعتبر من أمهات كتب الأدب العربي.

ويشتمل الكتاب على جملة من الأخبار والأمثال والحكم والمواعظ والأشعار وغيرها. وقد سُمي بـ «العقد» لأن ابن عبد ربه قسمه إلى أبواب أو كتب حمل كل منها اسم حجر كريم، كالزبرجدة والمرجانة والياقوتة والجمانة واللؤلؤة، وغير ذلك مما تناول عقود الحسان الحقيقية.

14. تاريخ الأدب العربي، ج1، ص: 8 وما بعدها.

(في صفة صاحب الذوق السليم ومسلوب الذوق اللئيم) ، بدأه مصنفه بذكر بعض صفات صاحب العقل والذكاء، وثنى بضده وهو الأحمق، ثم ذكر صاحب الذوق السليم من الملوك، وضده من الأمراء والأجناد وأبناء الترك والغلمان، ثم ذكر بعد ذلك القضاة والموقعين والخطباء والكتاب وغير ذلك إلى أن ختم بأصحاب الطرب من المغنين والملحنين، وأنهى كتابه بأرجوزة في مقامات الغناء.

يقول الدكتور شوقي ضيف:

" ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الكلمة تدل -فيما تدل عليه- على السنن التي ينبغي أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس، وألفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل (أدب الكاتب)¹⁵ لابن قتيبة، (أدب القاضي) و(أدب الوزير) وأخرى في أدب الحديث، وأدب الطعام، وأدب المعاشرة، وأدب السفر، إلى غير ذلك. على أن أكثر ما كانت تدل عليه، مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار." ¹⁶

*في العصر الحديث:

15 . كتبه الأديب اللغوي النحوي الشهير: ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة 276 هجرية. ذكر فيه جملة من الآداب النظرية والعملية التي ينبغي لكل من تصدى للكتابة أن يتأدب بها، والتي يمكن أن نسميها في عصرنا هذا: الثقافة الضرورية للكاتب. أراد مؤلف الكتاب أن يجعل من الكتاب رفيقاً لكل كاتب ينوي تقويم لسانه ويده، وقد أثنى ابن خلدون في مقدمته على كتاب ابن قتيبة فقال: " وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (أي: اللغة والأدب) وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتوابع لها وأصول عنها."

والمقصود من كل هذا أنه لا بد من إحياء فقه الكتابة وذلك بالالتزام بأدب الكاتب حتى تقوم حركة الكتابة بما يناسب عصرنا وثقافتنا، فبالإضافة إلى إتقان الكتابة ومحاولة تجنب الأخطاء اللغوية ما أمكن، ينبغي على الكاتب أن يقدر وقت القراءة، وأن يقدم لهم مادة ثقافية يحس من قرأها أنه لم يهدر وقته سدىً، ولم يضيع دقائق عمره عبثاً، إذ الكتابة بحق : فنُّ صناعة الأفكار.

16 . أحمد شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، ص:10

مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ومع سيطرة الاستعمار الغربي وهيمنته على الساحة العلمية والثقافية، سينضاف مدلول آخر لكلمة (الأدب) وينتقل من مجرد قضايا الشعر والفصاحة والبيان، إلى معنى عام يفيد كل ما هو مكتوب في مجال العلوم الإنسانية كالفلسفة والتاريخ والحضارة والأدب بأنواعه وأشكاله، في مقابل كلمة (العلوم)، كالطب والهندسة والفيزياء، وغيرها.

يقول الدكتور شوقي ضيف:

" أخذت الكلمة منذ أواسط القرن الماضي - يقصد القرن التاسع عشر - تدل على معنيين:

معنى عام يُقابل معنى كلمة: (LITTÉRATURE) الفرنسية التي يُطلقها الفرنسيون على كل ما يُكتب في اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه، سواء أكان علمًا أم فلسفة أم أدبًا خالصًا، فكل ما يُنتجه العقل والشعور يُسمى أدبًا.

ومعنى خاص هو الأدب الخالص الذي يُراد به الكلام الجميل الذي يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتي الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات". ¹⁷

17 . أحمد شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، ص:10